سفر الفلق

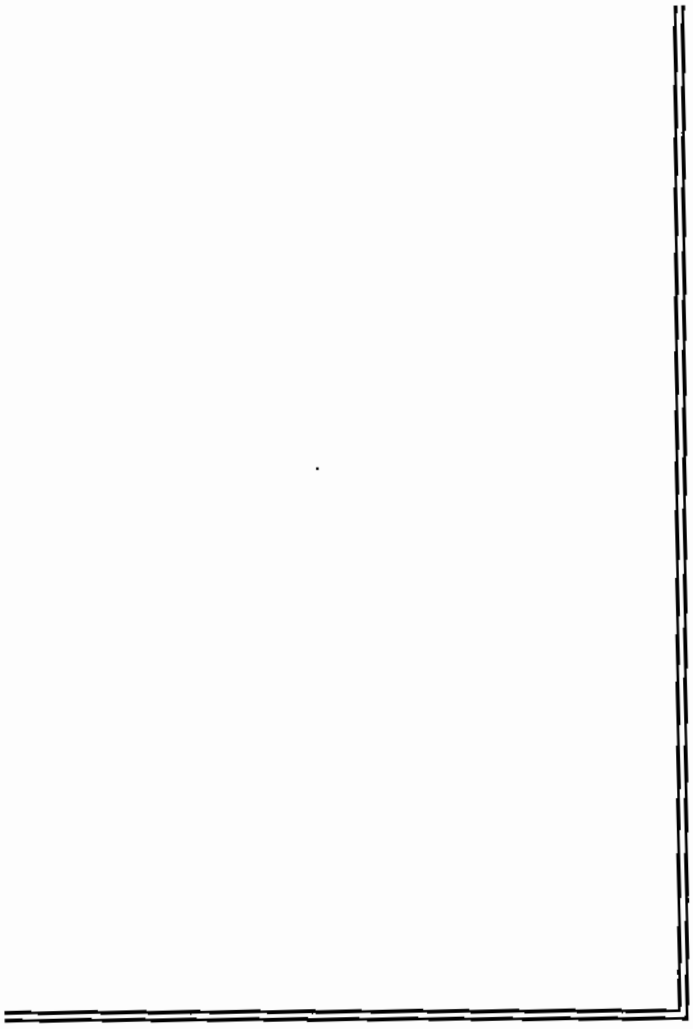

١

أحس بحركة تدب في جناح الطائر ، لعله يريد أن ينهض وأن يعيد توازنه ، وضع يده على قلب الطائر فوجده لايزال ينبض ، ويضخ الدماء ، فحمد الله وقال : كل شيء يهون ما دام القلب سليماً.

رأى مجموعة من الأطباء يتجمعون حول الطائر ، كانوا من جنسيات مختلفة ، مصري ، سعودي ، يمني ، شامي ، مغربي ، تونسي ، تركي ، باكستاني ، أفغانستاني .

تذكر على الفور المؤتمر الذي عقده الكواكبي في كتابه " أم القرى " لعلاج أدواء الأمة الإسلامية، ثم قال :

لعلهم يفلحون هذه المرة في أن يجعلوا نظرته تتجه ولو قليلاً إلى أسفل ، لعله يتنبه للصغار ، فنحن في عصر الصغار ، لعله يفطن إلى المكائد فنحن في زمن المؤامرات .

٢

كان توفيقاً من الله أن يلهمه حل اللغز الثالث .

تفتحت له كلمة " توفيق " هذه المرة عن معنى جديد لم يخطر له من قبل.

تعجب كيف كان هذا المعنى غائباً عنه من قبل . لعله هو قد تغير من داخله ، لعله أراد هذا المعنى فجاءه يسعى ، لعله قد تعرض له ، قد اقترب منه ذراعاً ، فجاءه يهرول إليه باعاً .

ليس كل هذا مهماً ، ولكن المهم أن هذا المعنى الجديد لم يصبه بالحيرة ، ولم يجعل النعاس يزاحمه .

نفض عن نفسه غبار الكسل ، ونهض يقاوم الكوابيس ، ويطارد فلول الظلام .

حقاً قد يعمل عمل أهل الجنة ثم يكون من أصحاب النار ، ولكن هذا لا يعني تحريضاً على ترك عمل أهل الجنة .

وحقاً قد يعمل عمل أهل النار ثم يكون من أصحاب الجنة ، ولكن هذا لا يعني إغراء بعمل أهل النار .

إن كل هذا يعني ألا يعتمد المرء على حساباته الشخصية ، وألا يستنيم إلى قدراته البشرية .

في غيبة التوفيق ، قد ينجح فيغتر ، وقد يفشل فيحبط ، وفي كلتا الحالتين سوف يدع العمل البتة .

ومع التوفيق سيظل باب العمل مفتوحاً حتى النهاية ، إنه يعمل في استماتة دون توقع للجزاء . إنه يعمل لأنه يجب أن يعمل ، ولأنه يجب أن يظل يعمل ، سواء واتته الحسابات أو خانته .

وتفهم تماماً الحديث النبوي " يا مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك ، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ " .

إن هذا الحديث لا يعني الفوضى ولا التخبط ولا ترك الأسباب ، ولكنه يعني التنبه للحسابات العليا ، والتيقظ لما لا يكون في الحسبان ، وترك الباب مفتوحاً لاقتناص الفيوضات .

إنه يعني الخشية واستمرار العمل ثم التعرض للنفحات .

عند هذا الحد كان الفجر الصادق قد بدأ يطل من جديد ، وانبعثت الأصوات تؤذن من كل جانب، واختلطت أصوات المؤذنين في نغمة جماعية ، ثم تعالت كأنها تسابيح الملائكة .

أحس بالرضا ، ثم سأل الله التوفيق .

٣

كلما عاود قراءة سورة النصر ، أحس فيها بمعان جديده تتجاوز مخاوف ابن عباس رضي الله عنه .

قد تحمل هذه السورة معنى التوديع ولكنها في الوقت نفسه تحمل معنى البقاء والامتداد ، وعرف لماذا غلب عليها اسم " سورة النصر " ولم يغلب عليها اسم " سورة التوديع " ، وعرف لماذا كان يحس النبي ﷺ بعد قراءتها بالاستبشار والتفاؤل .

وأدرك أن روح هذا الدين لا تضيع ، إن الحياة فيه تنبثق من الموت ، وإن النصر فيه ينبثق من المحنة ، وإن البناء يرتفع فوق الأنقاض ، وإن مع العسر يسرا .

وانهمك يتلو سورة " الشرح " .

(٩٤)

سورة الشرح مكية وآياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ
ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ
الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

٥

بعد أن فرغ من قراءة السورة ، أحس كأنه قد خرج لتوه من مغسله ، نقياً طاهراً ، قد تخلص من كل الأوزار والأوضار ، وأنه خفيف يرقى إلى قمة عالية ، ليس بينها وبين السماء حجاب .

وأحس أيضاً أن السورة في نهايتها تستنفر قواه لكي يحتفظ بالقمة ، تدعوه كلما أحس بالفراغ أو الفتور أو الونى ، أن يتعب وينصب ، وإلى ربه يرغب ، حتى يظل دائماً مشدوداً في قمة توتره ، وفي مشغوليته التي لا تعرف الفراغ .

إن الحركة هي الحياة ، وإن الفراغ هو الموت ، وإن السكينة هي الثبات ، أول السورة يدعو إلى السكينة وآخرها يغريه بالحركة .

كم هي مسئولية جسيمة ، وتذكر على الفور حركة الأجنحة الخفيفة والمتواصلة ، ونظر إلى عين الطائر ودعا له بالثبات ، ولمح قطرات الدم فوق جناحه الغربي قد تجمدت ، ثم عزم على أن يحتفظ بالقمة مهما كانت الأسباب ، ولن يسقط هذه المرة وأخذ يطهر الجرح من الهوام والحشرات .

٦

أخذت عينه تتنقل بين الإحصائيات ولغة الأرقـام والمواويل ومفردات الحياة اليومية فأحس بأنه يختنق ، وتحولت الدنيا أمامه إلى لون كاب ، وتحركت أمعاؤه ، وأحس بالغصة ، وتمنى لو يتلاشى ، لو يموت .

ولكن شيئاً ما بدأ يتحرك داخله ، يأتيه في تلك اللحظات ، لا يعرف سببه ولا مصدره ، ولكن يجعله يحس أنه فوق الغصة والقيء والغثيان .

وتذكر حلماً كان قد رآه وهو صغير ، لا يزال هذا الحلم يعاوده على غير موعد ، وفي وضوح وجلاء أكبر من الحقيقة نفسها ، كان صغيراً قد نام وهو حزين ، فرأى نفسه محبوساً في باطن الأرض ، تكاد تعتصره ، ولكن فجأة تنمو له أظفار طويلة وخشنة ، أخذ يحفر في باطن الأرض ، شيئاً فشيئاً ، حتى استطاع أن يحفر له سرداباً طويلاً ضيقاً ، أفضى به إلى فتحة ، أزاح عنها بعض التراب ، أطل منها كأرنب صغير ، فلمح ضوء الشمس ، ووجد الدنيا تضحك له ، ووجد شقيقه في انتظاره أمام الفتحة يصفق له .

لم يعد هذا الحلم حلماً ، بل أصبح حقيقة تعاوده فجأة دون مقدمات ولا أسباب ، كان مرة يستمع إلى سيمفونية القدر وأحس فيها بصوت رفيع رقيق ، تحاصره وتطارده أصوات خشنة ، تريد أن تخنقه ، ولكن هذا الصوت الرفيع الرقيق يمضي في طريقه لا يبالي ، وعاوده حينئذ حلمه ، وتذكر أظافره الطويله التي تشق السرداب .

وأراد أن يشرح كل ذلك لطفله ، الذي كان يستمع معه إلى تلك الموسيقى ، ولكنه لم يستطع ، فقد كان طفله صغيراً ، لم يجرب بعد تلك الأصوات الخشنة ، فاكتفى بأن ذكر له أن هذاالصوت الرفيع الرقيق ، إنما

هو صوت غزالة جميلة ، تجري والصيادون يلاحقونها بأصواتهم الخشنة ، كانت لا تبالي ، تجري وهي تغني منتشية ، والصيادون يلهثون وراءها ، حتى سكتت الأصوات الخشنة ، ولم يعد هناك صوت سوى ذلك الصوت الرفيع ، يملأ الأسماع ، ويتصدر اللحن .

وأحس كما لو أن الله معه ينتشله من الغصة في الوقت المناسب ، ولم يعد يخشى شيئاً ، ولم تعد الصعاب تحطمه ، بل أصبحت تبعث في داخله صوتاً رفيعاً يتحدى الصيادين ، وتذكر من جديد فتحة السرداب ، وشقيقه الذي يصفق له ، وتذكر كاتباً شاباً ، يجد عنده ذلك الصوت الرفيع الرقيق ، الذي يطل برأسه عنيداً ، يتحدى الأصوات الخشنة وخبطات القدر ، وأعاد من جديد قراءة قصته " اليمامة المضروبة " ، وتمنى لو أن عنوانها كان " اليمامة العنيدة " .

وتفتحت له دنيا جديده .

مسكين ابن خلدون ، كتب مقدمته والعالم الإسلامي في حالة احتضار ، فبدا كما لو أنه يقف على الأطلال يبكي ، ويشير العبرة ، فالدنيا دول ، والقمر يصبح بدراً ثم محاقاً ، والطفل يصبح شاباً ثم شيخاً ، والملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن شاء .

ومسكين العقاد أيضاً ، كان يحلو له أن يقرأ كثيراً عن الحشرات ، كان يراها مسودة الإنسان ، كان يتحدث عن الحتمية البيولوجية التي تسير الإنسان .

وامتدت يده إلى المصحف الشريف ، وأخذ يتلو الآيات الكريمة عن هلاك عاد وثمود وقوم تبع ، إنه لا يحس هنا نبرة رثاء وبكاء ، إنه يحس بنبرة استنفار ، لكي نتجاوز الغصة ، ونعلو فوق الغثيان ، وتذكر كلاماً

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه إنه يشبه في مضمونه كلام ابن خلدون ، ولكنه يختلف عنه في النغمة ، إن عمر في كلامه لا يبكي على الأطلال ، ولا يتحدث بنغمة الرثاء ، ولا يثير الأحزان والأشجان ، إنه يتحدث والحضارة الإسلامية في كمالها وقوتها ، وهو يريد أن يتدخل حتى لا تفقد قوتها ، وحتى لا يجري عليها ما جرى لمن لا يعتبر ، وتذكر من جديد حلمه القديم ، وتذكر الغزالة التي تمضي في طريقها وهي تغني منتشية ، وتمنى أن يكتب قصة " اليمامة العنيدة " ، ثم تساءل :

حقاً ، إن البدر قد يصبح محاقاً ولكنه يبزغ من جديد ، وحقاً إن الإنسان قد يصبح شيخاً ولكن طفله يعاود السيرة من جديد ، وحقاً إن الحشرات قد تكون مسودة الإنسان ولكن الحضارات لا تصنعها المسودات .

عند هذا الحد لمح في الأفق شهاباً ثاقباً ، يضيء ، ثم يستطيل ، ثم ينقض على الجن والعفاريت ، فصاح : مدد يا سيدنا الخضر .

٧

اليمامة المضروبة *

وأنا صغير أجوب الخلاء ، أرفع رأسي ، إذ أسمع فوقي رفيفاً مضطرباً لطائر يمرق ، إنها يمامة مضروبة ، تهوي .

ها هي ذي فرصة ساخة للحصول على يمامة بلا عناء ، وأطير وراءها .

هأنذا أجري ، واليمامة تهوي ، ضربها أحدهم دون أن يصيبها في مقتل (أفكر في كونها ستقع بمكان قريب) .

جناحها مضروب ، لكنها عنيدة ، أجري أنا ، تحت ، وترفرف هي فوق . تهبط رويداً رويداً حتى أكاد ألمسها ، أرفع يدي قافزاً لأنالها ، لكنها تنفلت ، تنطلق بأسرع ما تقدر ، وتسقط من جناحها المضروب قطرة حمراء ساخنة ، تبل يدي ، تطير فوق حقل مشتول ، أخوض لألحق بها ، لاهثاً ، فتنغرز قدماي في الطين ! ها هي ذي تبتعد وأنا مغروز ، أدرك أنها أفلتت وأنني لن أمسك بها أبداً ، أمسح قطرة دمها التي جفت وغمقت على يدي ، وهي – اليمامة المضروبة – أراها هناك .

نقطة رفيعة .

---

* في مجموعة " الآتي " بقلم : محمد المخزنجي .

٨

امتدت إليه يد ، كان صاحبها يلبس لباساً أبيض ، ويتمنطق بحزام أخضر ، فعرف للتو أنه الخضر .

سحبه إلى أعلى في طريق نوراني كأنه البحر الفضي أو الكوكب الدري ، حتى وصل به إلى مكان فسيح ، يشع نوراً من كل اتجاه ، وتحيط به الأنهار من كل جانب هذا نهر من ماء غير آسن ، وهذا نهر من عسل مصفى ، وهذا نهر من لبن لم يتغير طعمه ، وهذا نهر من خمر لذة للشاربين .

كان هناك قوم يجلسون على سندس خضر ، على وجوههم نور الشهداء وسكينة العلماء ، تحيط بهم رائحة من البخور ، تعبق المكان وتثير الخدر .

كانوا يقرءون في كتب التاريخ ، يستخلصون العبر والعظات ، ثم يقدمون الخلاصة على هيئة وصايا ، مركزة ومنغمة ، كأنها الحكم النادرة أو الأمثال السائرة .

٩

يقوم أحدهم لينشد الوصية ويجاوبه آخر ، ثم ينخرط الجميع في صوت واحد ، تهتز له جنبات الساحة :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

وتذكر على الفور أناشيد العيد في قريته ، الإمام ينشد ، ويجاوبه الجميع بهذا التهليل ، في نغمة ابتهاج وانتصار .

وأحس بطائره ينتعش ، ينهض ، يتصلب في السماء ، جناح في الشرق وجناح في الغرب ، يظلل الجميع ، كأم تحنو على أولادها .

١٠

تقدم رجلان ، كان أحدهما يكبر الآخر ، لمح وراءهما شريطاً يتحرك كأنه "الشاشة" المضيئة ، كان هناك آلاف من الحجاج ، يتجولون في المسجد الحرام ، هذا تركي ، وهذا أفغاني ، وهذا صيني ، وهذا إفريقي ، وهذا أمريكي ، وهذا أيرلندي .

ثم تبدل المنظر فكانت هناك قباب ومآذن تتبادل أمكنتها ، هذا هو الأزهر الشريف ، وهذا جامع الزيتونة ، وهذا مسجد بخاري ، وهذا جامع القيروان ، وهذا مسجد قرطبة .

كان الأول هو الأفغاني ، وكان الثاني هو محمد إقبال .

تقدم الأفغاني ، يستخلص تجربته ويتحدث عن أن الإسلام هو روح الثورات في العصر الحديث ، وأنه يطلق روح المقاومة ، وعن طريقه دك العروش وهز الصروح ، فليس هو أفيون الشعوب ، يخدر الجماهير ، ويؤازر السلطة ، بل هو ثورة ووعي ، ثم قدم الوصية الأولى :

" الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة "

وحاوره إقبال يستخلص العبرة ، ويذكر أنه قد قرأ كتب الفلسفة ، وعاش في بلاد أوروبية ، وحاور وجادل ، وأيقن أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ، لأن مبادئه متجددة ، لا تقف عقبة أمام المنجزات الحديثة ، وأنه من أجل ذلك ساهم في إنشاء حكومة عصرية تقوم على المبادىء الإسلامية ، وهي دولة باكستان ، ثم قدم الوصية الثانية :

" الإسلام تجديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات "

وتشابك الاثنان في نغمة واحدة ، يتلوان الوصية الثالثة :

" الدين يحيي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات "

عندئذ اهتزت رءوس الحاضرين ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الجميع في إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١١

وبهذا تعلم أن المنع من التقليد إن لم يكن إجماعاً فهو مذهب الجمهور .

ويؤيد هذا ما سيأتي في المسألة التي بعد هذه من حكاية الإجماع على عدم جواز تقليد الأموات ، وكذلك ما سيأتي من أن عمل المجتهد برأيه إنما هو رخصة له عند عدم الدليل ولا يجوز لغيره أن يعمل به بالإجماع ، فهذان الإجماعان يجتثان التقليد من أصله ، فالعجب من كثير من أهل الأصول حيث لم يحكوا هذا القول إلا عن بعض المعتزلة .. وقد ذم الله تعالى المقلدين في كتابه العزيز في كثير من الآيات ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة** ﴾ ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ ﴿ **إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل** ﴾ وأمثال هذه الآيات ، ومن أراد استيفاء البحث على التمام فليرجع إلى الرسالة التي قدمت الإشارة إليها ، وإلى المؤلف الذي سميته " أدب الطلب ومنتهى الأرب" .

(الشوكاني)

١٢

ثم وقف اثنان يمسك كل منهما بيد الآخر ، تبدل المنظر ، ووجد أمامه صحراء عربية ، لا معة الرمال ، تبرق كأنها الذهب ، ولمح نخلته تترامى في الأفق ، وتتراقص أشعتها كعرائس الجان ، كان خلفها هلال صغير يسبح في الفضاء كزورق من فضة .

كان أحدهما هو الجبرتي ، والآخر هو لطف الله جحاف .

تكلم الجبرتي وأخذ يقرأ من كتابه " عجائب الآثار " قصة سليمان الحلبي شاب من الشام ، جاور في الأزهر الشريف ، وتتلمذ على يد علمائه الأجلاء ، ساءته الحملة الفرنسية ، فعزم على الانتقام ، وطعن كليبر بمدية نافذة ، وجعل الجبرتي يقدم الوصية الرابعة :

" مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان "

وجاوبه لطف الله جحاف ، يتلو من كتابه "دور نحور الحور العين" قصة المجاهدين في مكة ، أفزعهم أن يهجم الكفار الفرنسيس على مصر المحروسة ، فدعوا إلى الجهاد ، وجاءوا إلى صعيد مصر ، يقضون مضاجع الكفار ، ويستشهدون في سبيل الله ، ثم قدم الوصية الخامسة :

" العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أساس البنيان "

وتراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوان الوصية السادسة :

" العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان "

واهتزت الرءوس ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

" الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١٣

ودخلت سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وفيها قام في البلدة الحرام ، بوظيفة الدعاء إلى إقامة شعار سنام الإسلام ، محمد المغربي الجيلاني الهاشمي لما وردت الأعلام ، بما صنعه الكفرة اللئام ، من الهجوم على ساحات مصر ، وتصدر بالحرم الشريف فالتف عليه خلائق ، واستمعوا إرشاده إلى أنهج الطرائق ، وفعل دعاه بالقلوب ما فعل ، وتسامع الناس بأخباره فوردوا إليه ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم بين يديه ، وكانت النساء تأتي فتستمع ما يمليه من أحاديث الحض على الجهاد ، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن وعقودهن وملبوسهن ، ويقلن ذلك الذي علينا ، فاجتمعت عنده أموال واسعة ، ووردت إليه المتطوعة من البلاد الشاسعة ، فسار بهم لمناجزة أعداء الله الفرانسة " .

(درر نحور الحور العين)

١٤

وظهر بين الأثل والشوك وسعف النخيل ، وجه لم يغب عن باله أبدا ، كان يراه في كل أخدود من الأرض ، وعلى كل حنية جبل ، وفوق وجوه الفلاحين والفلاحات ، فصاح : إنه عرابي .

وتبعه شيخ جليل حاد النظرة ، تتداخل حبات الشعر في ذقنه العريضة فتبدو كعناقيد العنب أو سباط النخيل ، تذكرت على الفور تلك الصورة ، التي كنت أراها على " الجنيه " الأخضر ، صورة النيل ترقد كعملاق على صفحة الجنيه المصري ، وقد تمدد من شمال الوادي إلى جنوبه ، تحيط به كروم العنب وسنابل القمح ، ويتسلق فوق أكتافه أبناؤه الصغار ، كأنهم الملائكة يرفرفون في جنات خضر . تفرست فيه قليلاً ، فعرفت على الفور أنه الرافعي .

جعل عرابي يتحدث عن ثورة الفلاحين ، كان الناس يظنون صمتهم جبناً وسكوتهم ذلا ، ولكنهم فجأة انطلقوا تحت قيادته يهددون الدخلاء ، كان الزعيم هو شرارة الثورة ، وكانوا هم وقودها وحماتها ، ثم قدم الوصية السابعة :

" الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون "

وجاوبه الرافعي ، لم يكن يتحدث عن أفراد أو زعماء أو ملوك ، كان يتحدث عن الجماهير المصرية ، وكان يسجل في كتبه دورها في ثورة القاهرة ، وضد الحملة الإنجليزية وفي ثورة ١٩١٩ ، ثم قدم الوصية الثامنة :

" جماهير شعبنا لا يخطئون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون "

ثم تراسل الاثنان في نفس واحد ، يتلوان الوصية التاسعة :

" مصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون "

واهتزت الرءوس ، وتمايلت الأبدان ، وانخرط الكل في إيقاع واحد :

"الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد".

١٥

أبو الهول

" وحفروا حوالي الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام ، التي تسميها الناس رأس أبي الهول ، فظهر أنه جسم كبير عظيم ، من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهي التي يراها الناس ، وباقي جسمه مغيب بما انهال عليه من رمال ، وساعداه من مرفقيه ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة ، من سماق أحمر ، عليه نقوش شبه قلم الطير في داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب ، رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ، وقيس المرتفع من جسم أبي الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعا ، وهي نحو الربع من باقي جسمه " .

(الجبرتي ٣/٥٧٢)

١٦

وتوالت العظات والعبر ، وخشي أن يفوته منها شيء ، فجعل يرددها لكي يحفظها ظهراً عن قلب :

- الوصية الأولى : الإسلام مفجر الثورات ، ضد الظالمين والطغاة .
- الوصية الثانية : الإسلام تجديد لما هو آت ، فلا تكن عبداً لكل من مات.
- الوصية الثالثة : الدين يحيي الشعوب والرفات ، فلا تصدقوا ما قيل من ترهات .
- الوصية الرابعة : مصر والعروبة أخوان ، فهما أبداً لا يفترقان .
- الوصية الخامسة : العروبة روح في الأبدان ، فاجعلوها أسس البنيان .
- الوصية السادسة : العروبة درع لمن في مصر أو يمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان .
- الوصية السابعة : الفلاح كنز مدفون ، قد صهرته الليالي والسنون .
- الوصية الثامنة : جماهير شعبنا لا يخطئون ، وإن أخطأ المستبدون العادلون .
- الوصية التاسعة : عصر حضارة القرون ، مهما تقول المتقولون .

* * *

وانتشت نفسه ، وأخذ يحجل طرباً ، وتاه في لذة سرمدية ، حتى ضاعت منه الوصية العاشرة .

١٧

تقدم منه الخضر ، وسكب عليه ماء بارداً وهو يتلو

﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ،إن علينا جمعه وقرآنه ﴾

ثم ألقاه وحده في جوف الفضاء ، فأحس أنه خفيف كمسافر قد تخلص من متاعه .

١٨

تخلى عنه الخضر ، ووجد نفسه نشيطاً ، يخب وحده في السماء ، وجاءه صوت من داخله :

" أنت خضر نفسك ، فنقب عما في قلبك "

فعرف أنها الوصية العاشرة التي كان قد افتقدها ، فحمد الله واستشعر الثقة .

سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ٦٢ (٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ
عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً
أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ
يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ
آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ
الْأُخْرَىٰ ⑳

٢٠

كان قاب قوسين أو أدنى ، وأحس بنشوة ناعمة كأنها الحرير ، وبخدر لذيذ يسري في أعضائه ، أغمض عينيه ، وكاد يتوه في حلم جميل كأنه الموسيقى .

لولا أن جاءه صوت لا يعرف مصدره ، لم يكن صوت إنس أو جان ، ولم يكن صوت بشر أو ملائكة .

كان صوت طائر كأنه " الكاه " ، لم ير طائراً مثله وإن أحس كأنه يعرفه منذ آلاف السنين ، تفرس فيه فتعرف على روح الآباء والأجداد ، وأدرك أنه الطائر الذي يجول كل مساء في سماء المنطقة ينتظر الموعودين .

قال له طائره بصوت كأنه النذير : " أفق حتى لا تضيع منك رسالة الغفران فتفقد طريقك إلى الجنان " .

ثم سلمه صحيفة مكتوباً عليها " رسالة الغفران " .

٢١

رسالة الغفران

لا تفرط في السكر ، ولا تطل المكث في مقام الفناء ، تزود ثم عد ، عليك بمقام البقاء .

الله رحيم فكن أنت رحيما ... وهو قوي فكن أيضاً قويا
الله غفور فكن أنت غفورا ... وهو متين فكن أيضاً متينا
الله سلام فكن أنت سلاما ... وهو قدير فكن أيضاً قديرا
الله غفار فكن أنت غفارا ... وهو قهار فكن أيضاً قهارا
الله مؤمن فكن أنت مؤمنا ... وهو مهيمن فكن أيضاً مهيمنا
الله ودود فكن أنت ودودا ... وهو منتقم فكن أيضاً منتقما
الله حليم فكن أنت حليما ... وهو كبير فكن أيضاً كبيرا
الله رحمان فكن أنت رحمان ... وهو متعال فكن أيضاً متعاليا
الله شكور فكن أنت شكورا ... وهو قوي فكن أيضاً قويا
الله رءوف فكن أنت رءوفا ... وهو عزيز فكن أيضاً عزيزا
الله نور فكن أنت نورا ... وهو شديد فكن أيضاً شديدا
الله عفو فكن أنت عفوا ... وهو منتقم فكن أيضاً منتقما
الله تواب فكن أنت توابا ... وهو جبار فكن أيضاً جبارا
الله بر فكن أنت برا ... وهو متكبر فكن أيضاً متكبرا
الله حليم فكن أنت حليما ... وهو مغيث فكن أيضاً مغيثا
الله سميع فكن أنت سميعا ... وهو بصير فكن أيضاً بصيرا
الله قابض فكن أنت قابضا ... وهو باسط فكن أيضاً باسطا
الله مقدم فكن أنت مقدما ... وهو مؤخر فكن أيضاً مؤخرا
الله معز فكن أنت معزا ... وهو مذل فكن أيضاً مذلا
الله خافض فكن أنت خافضا ... وهو رافع فكن أيضاً رافعا
الله نافع فكن أنت نافعا ... وهو ضار فكن أيضاً ضارا
الله ظاهر فكن أنت ظاهرا ... وهو باطن فكن أيضاً باطنا

٢٢

ووجد نفسه يردد الاسم الأعظم وما يقابله ، وواظب على ورده الجديد عقب كل صلاة جماعة ، يلتمس به الغفران .

حينئذ أحس بالامتلاء والتكامل ، وبأنه يضم الشرق والغرب معاً بين فكيه .

٢٣

تساءلت ؟

مسكين أبو العلاء ، على الرغم من ذكائه وفلسفته وقدراته العقلية فإنه دائماً يضيع ، لقد افتقد شيئاً أكبر من الذكاء ، شيئاً لا يأتي بالذكاء والاجتهاد ، وإنما يقذفه الله في قلب عباده .

مسكين أبو العلاء ، إنه مطرود من رحمة الله ، ضل الطريق ، فلم يصل إلى اليقين .

مسكين أبو العلاء ، أراد أن يدخل الجنة من غير طريقها ، أراد أن يعتمد على ورقة دون أن يفهم مضمونها ، أراد الغفران دون أن يحمل الرسالة .

مسكين أبو العلاء ، حين ضاعت منه الورقة ، أراد أن يتسلق على ظهر امرأة ، وأن تحمله زيزفونة في غفلة من الحراس والملائكة .

مسكين أبو العلاء ، جزاه الله من جنس عمله ، جنة من العفاريت والجان ، جنة خير منها الجحيم.

٢٤

لم أجد الرسالة غريبة عليّ ، كأنها كانت محفورة في قلبي ، كأنها في ذاكرتي منذ الصغر ، أحسست بالنشاط والخفة ، وكنت أقوى من السموات والأرض والجبال ، إنني الآن أستطيع أن أحمل الأمانة ، لن أجهلها ، ولن أظلم نفسي ، فقد عرفت اليقين .

أحسست أنني أقبض على الشرق والغرب معاً ، وأخذت أردد :

الله رحيم فكن أنت رحيما وهو قوي فكن أيضاً قويا

تضاءلت من ذاكرتي صورة صاحب البيت مع أصحابه ، كنت أراهم في طفولتي تحت السلم ، في ظلام لا يكشف عن ملامحهم ، كأنهم الأرواح الخفية ، كانوا يرددون : الله ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر .... إلخ .

كانوا يكررون ، ويكررون ، ثم يغيبون في لذة سرمدية .

الآن تضاءلت تلك الصورة ، وحلت محلها حياة جديدة ، لن أقنع بالظلام ، ولن أعيش في الدهاليز ، ولن أتعامل مع الأرواح الخفية .

وصحت : سأعبد الله بين الناس ومع الناس ، سأحقق الرحمة والقوة معاً سأقبض على الشيئين معاً ، سوف أكون أقوى من الشرق والغرب معاً .

وكانت تلك صلاتي وهديتي من طائرتي الأليف .

٢٥

تاقت نفسي إلى نخلتي ، لم أعد أراها وحيدة ، ولم أعد أرى الصغار يرمونها بالحجارة ، كانت تراهم من بعيد ، فتطامن وتتطامن حتى تصل إلى قامتهم ، فيجنون منها الثمار بأيديهم ، ويعبون منها ما يريدون ، ثم تعود إلى مكانها شامخة تضرب في أجواز السماء .

أحسست بالهدوء ، ولم أعد أفكر في كتاب " الوسطية العربية " فقد علمتني النخلة أن أعطي دون انتظار .